المحاضرة الثالثة: الاتجاه الاصلاحي في الشعر الجزائري

أولا – مفهوم الاتجاه الاصلاحي:

الاتجاه الاصلاحي في الشعر هو ذلك الذي ارتبط بالحركة الاصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، حيث ارتبط بها مجموعة من الشعراء الذين حملوا رسالتها النبيلة في التربية والاصلاح ونشر العلم والثقافة والحفاظ على هوية الشعب الجزائري والوعي للتحرر من الاستعمار الفرنسي، من بينهم أحمد سحنون ومحمد العيد آل خليفة ، السعيد الزاهري ، رمضان حمود ، مفدي زكرياء، عمر بن قدور وغيرهم.

ثانيا- العوامل التي ساعدت في ظهور الاتجاه الاصلاحي:

يمكن ايجاز العوامل التي ساعدت في ظهور الاتجاه الاصلاحي إلى عاملين أساسيين:

أ- **الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي طبعت الحياة العامة للجزائر:** لعبت هذه الظروف دورا أساسيا في ظهور الشعر الاصلاحي، ففي منتصف الثلاثينيات " بدأ الشعب الجزائري يستيقظ من سباته ويبحث عن الطريق الذي يقوده إلى النجاة وكان هذا الطريق هو العودة إلى الدين الاسلامي الصحيح، مما أدى بسبب الدعوة إلى هذا المنبع النقي إلى اصطدام بين رجال الاصلاح وبين الطرقيين والمستعمر ، ودخل الشعر هذه المعركة ..... وكانت فلول الطرقيين تتهاوى تحت ضربات الشعراء الذين حملوا لواء هذه الدعوة".

ب- **ظهور الحركة الاصلاحية:** حيث كانت عاملا قويا في ظهور هذا الاتجاه لأن أغلبية الشعراء الذين ظهروا في هذه الفترة ، إنما كانوا يحملون بذور الفكرة الاصلاحية وقد لمح إلى ذلك عبد الله الركيبي قائلا: " هذه الأفكار من تجنيس واندماج وما صاحبهما من الدعوة إلى التبشير ومحاولة التفرقة بين العناصر التي تشكل الجزائري بعامة، ترددت لا بالجزائر وحدها، بل في المغرب وتونس أيضا، وتبلورت بشكل واضح أثناء احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها الجزائر، كل هذا أدى إلى أن تظهر

الفكرة الإصلاحية لتصارع هذه التيارات الأجنبية وتدافع عن الشخصية القومية، وعن الحضارة العربية الإسلامية" .

وهكذا أصبح الشعر وسيلة شريفة تخدم المشروع الاصلاحي كما عبر عن ذلك عبد الله الركيبي قائلا: " ارتباط الشعر بالفكر الاصلاحي جاء لظروف أحاطت بالأدب والثقافة وبسبب عوامل أحاطت بالفكر والمجتمع والسياسة فأثرت في الشعر ووجهته لخدمة هذا الفكر" .

لكن هناك سؤال مهم يتوجب الاجابة عليه وهو : **لماذا ارتبط الشعر بالحركة الاصلاحية ولم يرتبط بحزب من الأحزاب الأخرى ؟**

هذا السؤال الذي أجاب عليه عبد الله الركيبي بقوله : " ...لهذا ارتبط بالفكرة الاصلاحية ولم يرتبط بالأحزاب السياسية، لأن هذه الأخيرة لم يكن من أهدافها العمل على إحياء التراث ، خاصة الثقافي والأدبي، وإنما انصبّت مطالبها على المساواة والعدالة عند فريق وعلى الحرية والاستقلال عند فريق آخر ، فيما كان رجال الإصلاح لا يرون تقدما بغير المقومات الأساسية للشعب، من لغة وتاريخ ودين وحضارة ، ومن هنا اتجه الشعر إلى التركيز على فكرة " الإحياء" وكانت النظرة فيه سلفية تتجه إلى الماضي الذي يمثل النموذج المحتذى" .

ثالثا- روّاد الشعر الاصلاحي:

لهذا الاتجاه كوكبة من الرواد نذكر منهم رمضان حمود، محمد بن قدور ، محمد العيد آل خليفة ، أحمد سحنون ...، غير أننا سنقف في هذه المحاضرة على شاعرين كان لهما الشيوع والبروز هما " محمد العيد آل خليفة" ، و " أحمد سحنون ".

محمد العيد آل خليفة:

من مواليد عين البيضاء بتاريخ 27 جمادي الأولى 1323 الموافق لـ 28 أوت 1904 من أسرة متدينة وعريقة حفظ القرآن الكريم بمدينته وتعلم بمدرستها الابتدائية من الشيخين محمد الكامل بن عزوز وأحمد بن ناجي، ثم انتقل للزيتونة سنة 1921 ثم رجع سنة 1923 إلى بسكرة وشارك في حركة الانبعاث الفكري بالتعليم والنشر في الصحف والمجلات " صدى الصحراء " للشيخ أحمد بن عابد العقبي و " المنتقد " و "الشهاب" للشيخ بن باديس.

وفي سنة 1927 دعي إلى العاصمة للتعليم بمدرسة " الشبيبة الاسلامية الحرة " ، كما ساهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين، ساهم في أنشطة مختلفة إلى أن دخل السجن بعد اندلاع الثورة المباركة، له ديوان شعر يقع في 587 صفحة يعالج القضايا المختلفة (الاجتماعية، الدينية ، الفكرية والسياسية) ، ويمكننا ذكر القصيدة التالية:

هيهات لا يعتري القـــرآن تبديـل وإن تبدّل تـــــوراة وإنجيـــــل
قل للذين رموا هذا الكـــتاب بما لم يتفق معه شرح وتأويـــــــل
هل تشبهون ذوي الألبـاب في خلق إلا كما تشبـــه النـاس التماثيل؟
فاغزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا في القول هيهات لا تدي الأباطيل
وازروا عليه كما شـاءت حلومكم فإنه فوق هام الحـــق إكليـــل
مـــــاذا تقولـون في أي مفصّلـة يزينـها من فـم الأيـام ترتيـل؟
مـاذا تقـــولون في بيض صحائفه هدى من الله ممضي فيه جبريل؟
كلامه من الصدق الأمين ولا كذب وحكمـه الحقّ لا ميـز ولا تفضيل

أحمد سحنون:

ولد سنة 1907 بقرية " لشانة" قرب بسكرة، فيها تلقى تعلمه الأولي، ثم انتقل إلى زاوية " طولقة" وكان ذا موهبة قوية ساعدت على صقلها قراءته الحرة واتصاله بالإمام "ابن باديس" وانخراطه في الحركة الإصلاحية.

وفي سنة 1936، عيّن مديرا لإدارة مدرسة التهذيب " بحي بولوغين" ، ألقي عليه القبض سنة 1956 وظل ينتقل بين سجون الاستعمار لثلاث سنوات ، وفي هذه الفترة نظم جزءا هاما من شعره سمّاه " حصاد السجن " متأثرا بالمحافظين، من آثاره ديوان شعر في أغراض شتّى وكتاب " دراسات وتوجيهات إسلامية" ، نأخذ من شعره الواسع هذه القصيدة بعنون "الجزائر تشكو" :

يـــا أمـــة جمعتهـــا	عقيـــدة الايمـــان
وأخـــوة تلاقـــوا	على هـــوى الأوطان
وأنفســـا ظامئـــات	للعـــلم والعرفـــان
تحيـــة من فـــؤاد	في حبـــكم متفـان
إن الـجزائـر تشكـــوا	لكم بـــدون لسـان
تشكو لكم ما تلاقـــي	من ذلـــة وهـــوان
تشكوا اغتصاب حقـــوق	تشـكو ضياع أمـــان
فلتنجـــدوهـــا لتـــحي	كســـائر البـــلدان
بـــأن تـــردّوا إليهـــا	مـا ضـــاع من زمان

رابعا- الخصائص الفنية للشعر الإصلاحي:

أ-اللغة والأسلوب:

امتاز أسلوب شعراء الاصلاح بثلاث خصائص :

01-الوضوح والسهولة : تميز شعر الاصلاح بالوضوح والسهولة والبساطة، وارتبط ذلك بالمجتمع من جهة ومن الشعراء أنفسهم من جهة أخرى ، فبالنسبة للمجتمع فيعود ذلك لما يعرفه من فقر وحرمان وأمية، كلها عوامل دفعت الشعراء إلى الوضوح في المخاطبة والمقارعة ، أما ما كان مرتبطا بالشعراء فيرجعه " محمد ناصر" إلى :

* **الرؤية التقليدية لشعراء الاصلاح :** فلم يحاولوا التعامل مع اللغة تعاملا غير عادي باستخدام الرّمز اللغوي أو الاتيان بعلاقات جديدة بين الألفاظ، لقد بقيت اللفظة عندهم في حدودها المعجمية ، فم يحملوها على غير محملها ، ولم يفجروا فيها أبعادا جديدة مدهشة.

* **موقفهم ورؤيتهم النقدية لوظيفة الشعر:** فقد كان الشعراء يكتبون لجمهور الشعب ويستخدمون الشعر كأداة من أدوات الاصلاح، فحسب رمضان حمود فإن الشاعر عنده لا يسمى شاعرا إلا إذا خاطب الناس اللغة التي يفهمونها، " بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسقة.

* **طبيعة المعجم الشعري لشعراء الاصلاح**

* **تأثير مدرسة الإحياء العربية وروادها:** كأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ومعروف الرصافي.

2-التقليد والاتباع:

ميزة أساسية ارتبطت بالشعر الاصلاحي ومردّ ذلك رؤيتهم في المحافظة على القديم والتمسك به هو من صميم المحافظة على التراث الأصيل الذي كان هدفا من أهداف الحركة الاصلاحية، فالتعلق الكبير بشعراء مدرسة الاحياء العربي غلب على الشكل التقليدي للقصيدة الجزائرية آنذاك.

3- المتانة والجزالة والقوة:

وهي في مدلولها تدل على تمكن جيد من ناصية اللغة وخصائصها وألفاظها ومفرداتها مما جعل معجمهم الشعري غني بالألفاظ الجميلة وكما أنه أصبح معجما ثريا واسع الثراء ولغتهم تجلّت صحيحة وسليمة بسبب أنهم لم يتساهلوا في استخدام لغة ضعيفة أو تعبيرات ركيكة أو عبارات سقيمة، يقول سعد الله : " ولعل أكثر ما يميز الشعر الجزائري جزالة اللفظ وحبك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة.

فالاقتباس من القرآن الكريم وظفه الاصلاحيون بمهارة وذكاء فأعطى ألفاظهم متانة وقوة، ومثال ذلك قول محمد العيد في قصيدته " هذيان آشيل "

فليس فيه لأعلى الناس منزلة (عدن) وفيه لأذى الناس (سجيل)

فقد اقتبس هنا من سورتي البينة والفيل، كما اقتبس مفدي زكرياء الذي عرف بكثر الاقتباس في قوله :

أنا راض إن عاش شعبي سعيدا واقض يا موت في ما أنت قاض

ب-الصورة الشعرية:

لقد تميزت الصورة الشعرية في الشعر الاصلاحي الجزائري بالضعف وهو ما أكده محمد ناصر بقوله : " قد لا يكون من قبيل التعجل في الحكم القول بأن الجانب الفني في الشعر الجزائري في هذا الاتجاه ظل في الأغلب الأعم ضعيفا وأن ضعفه يرجع أساسا إلى ضعف عنصر التصوير فيه " .

رغم هذا التقرير فإنه لا يمكن أن نصدر حكما قاطعا بأنّ الصورة كانت غائبة تماما ولكنّ المراد هو أن حضور هذه الخصيصة كان ضعيفا فوجب التنبه ، وللوقوف على اهتمام شعراء الإصلاح بالصورة الشعرية نورد خصائصها كالتالي:

01-الوضوح والابتذال: والمقصود بذلك أنه كلما كانت الصورة واضحة فإنها لا تستحق استعمال الخيال الواسع أو بذل الجهد في فك الرموز وتشفيرها.

02- الحسية والشكلية: وتعني أن نصف الشيء وصفا حسيا شكليا، كما هو بخصائصه وأركانه ، " والمراد بالحسية والشكلية ميل الشعراء إلى وصف الأشياء وصفا حسيا يتناول الخصائص الثابتة كاللون والحجم والشكل والوقوف عند هذه الجوانب التي تعتمد أساسا على حاستي البصر والسمع دون التغلغل إلى مواطن الأشياء والنفاذ إلى جواهرها باستخدام الحدس والخيال لتحفيز الوعي والمنطق والعقل.

3 - الجمود وعدم التعاطف: وهي أن تقدم الصورة وتعطى جامدة تماما كالشيء الذي تلامسه اليد أو تبصره العين ومن هذا المنطق كرس الشعراء هذه الخصيصة في شعرهم مما طبع قصائدهم بالجمود وانغلاق النفس فلا خيال ولا إيحاء.

ج - البنية العامـــة:

ونقصد بها الإطار العام الذي يمشي فيه الشعراء من حيث النبرة الخطابية والتعبير وكذا الصياغة اللفظية التي استعملوها في قرض الشعر.

01-النبرة الخطابية: ولعل أول مظاهر طغيان النبرة الخطابية في القصائد العمودية هو ارتكازها الشديد في صياغتها العامة على الأدوات المستعملة في الخطب عادة كأدوات الاستفهام والأمر والنهي والتوكيد والنداء والإكثار من صيغ التعجب والإنكار والتحريض والتخصيص والقسم...الخ.

يقول محمد العيد مستفهما:

علام يظلّ دهرك مستريبا تسأله ويأبى أن يجيبا؟

فالتشبيه والتحضض يحتلان مكانتهما بسبب أن الشاعر يعتمد الاهتمام بهذا الغرض في شعره إما اهتماما بشعره أو لأفكار الإصلاح والإحياء التي يدعوا لها كقول ابن السائح:

ألا دع التغزل في غوان فتلك طريقة المستهترينا

يقول الركيبي : " ما دام أن الدعوة التي حملها هؤلاء الشعراء كانت الدعوة إلى الاستفاقة واليقظة، فإنهم عمدوا سواء بشعور أم بغير شعور إلى استعمال ألفاظ معينة مثل الانذار بالخطر ومن ثم تعتمد القصيدة على الاستفهام والإنكار والتعجب والنداء والتحريض والأمر والنهي..."

02-الصيغة اللفظية:

وهي الاعتناء بصياغة الألفاظ وإخراجها في قالب جميل، ويشير محمد ناصر إلى أن هذه الميزة تدل على الجهد الذي يبذله شعراء هذا الاتجاه البياني، فقد كانوا فيما يبدوا شديدي العناية بقصائدهم يجودونها تجويدا ويحتفلون بها احتفالا وإن هم تفاوتوا في مقدار هذا التجويد والاحتفال.

وأخيرا نستطيع القول أنه كان لظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أثر عظيم في تجميع كوكبة من الشعراء ، سخروا أقلامهم وقريحتهم لخدمة مشروع الاحياء والبعث في وطن استوطنه الغرب المسيحي بقيادة فرنسا.

وقد بدا على شعرهم هذه الرسالة التي أفنوا حياتهم في صدقها متأثرين بإخوانهم في مدرسة الإحياء الشرقية، فقد عمل شعر الاصلاح من خلال الشعر واللغة والفكر على الدفاع عن قيم الأمة وهويتها ومبادئها ، فكان سببا من أسباب نشر الوعي ومحاربة الجهل وتصحيح العقيدة وترسيخ الانتماء .